العوامل المؤثِّرة في فن العمارة الإسلاميّة

الدكتور المهندس محمد حسّان السراج

تأثّر فن العمارة الإسلامي بعدد من العوامل مما جعل له إطاراً خاصًّا يتحرّك من خلاله، إلا أن له حدوداً لا يمكن أن يتخطّاها.

الحلقة (٣)

وقدْ أُعيد بناؤه سنة ٧٠٣ م، فعرض رواقه الممتد إلى القبلة وأقيمت قباب على جانبيه، وأُقيم منار ضخم على الجانب الأخر من الصحن المحاط بالبوائك والدعائم ذات الأعمدة الأماميّة المزدوجة.

ورغم أنّ الجامع الأموي بقرطبة لم يبدأ بناؤه إلا سنة ٧٨٥ م، فالصلة وثيقة بينه وبين النموذج السوري، حتّى بعد تجديده وتوسيعه سنة ٨٤٠ م ثم سنة ٩٦٥ م.على أنّ تجديده بعد ذلك وزيادته سنة ٩٩٠ م تضمن خروجاً على البلد المحوري للنموذج السوري، وبدلاً من العقد المستدير استخدم عقد على هيئة حدوة، لعلّه مُقتبس من الغوطيّين الغربيّين، وفيه تبدو قاعة الصلاة كغابة من الأعمدة في وضعين تربط بينهما دعائم قصيرة، وطبقاته من الحجارة والآجر.

وقدْ تمّ في نطاق مبنى الجامع وفي نفس الوقت تحويره إلى عقود ذات فصوص ثلاثة وعقود مُشرشرة، واستخدم ذلك لأوّل مرّة في النافذة المزدوجة التي يتوسّطُها عمود، وأصبحت مُنشآت القُبّة البسيطة فوق منطقة المحراب التي تتألّف من مُثمّنات من حنايا زوايا، ومُربعات مُضلّعة مُتقاطعة. وقدْ امتدّ استعمالها بعد ذلك حتّى في الغرب المسيحي.

وفي أكثر هذه المباني، تذكرنا جُدرانها الخارجيّة المنيعة بمساجد المعسكرات في الزمن القديم، وقدْ تقرّرت الخواص الإقليميّة في تصميمات المباني، فكانت في مصر قريبة من الشكل المربع، بينما بقيت في سوريا على قاعدة المستطيل الأفقي، وفي المغرب على قاعدة المستطيل العمودي. على أنّ جامع عمر (قبة الصخرة) في بيت المقدس قدْ شذَّ عن هذه القاعدة، إذْ هو بناء مُثمّن الشكل، يقوم من الخارج على نظام من العقود المدبّبة والمباني الأماميّة للأبواب، ومن الداخل على موضع ذي دعائم مُثمّنة وآخر مركزي ذي دعائم أسطوانيّة، تعلوها قبّة خشبيّة مزدوجة الكسوة، تصلها بهما طارة، وقدْ يرجع هذا التصميم إلى أنّ البناء حول الصخرة المقدّسة، أو

يرجع إلى الرغبة في منافسة الكنائس المسيحيّة، وأيّاً ما كان الأمر فقدْ كان الغرض من إنشائه سنة ٦٩١ م في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان هو أنْ يكون مزاراً مُقدّسا للمسلمين في موضع هيكل سليمان.

اتّبع النبي محمد وخلفاؤه الأربع الراشدون البساطة في العريش، وكانت مساكنهم بسيطة استخدمت فيها الخامات البدائيّة، كما اكتفوا بتشييد أماكن بسيطة للعبادة تفي فقط حاجة إقامة الشعائر الدينيّة، لذلك نجد أنّ تصميم أوّل مسجد إسلامي شيد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان بسيطا بدائي العمارة. فمسجد المدينة الذي كان ملحقاً بدار الرسول كان عبارة عن مساحة مُربّعة يُحيط بها جُدران من الطين والحجر، ويُغطّي جزء من سقفه بسعف النخيل المغطى بطبقة من الطين، ويرتكز هذا السقف على عدد من جذوع النخيل. وكان الغرض الأوّل من إقامته هو جمع المصلين في مكان واحد مُتّسع ليقفوا صفوفاً في مواجهة الكعبة في مكة. وكان النبي يتّجه قبل ذلك صوب بيت المقدس.

والمسجد أهم مكان تتمثّل فيه العمارة الإسلاميّة ولقدْ ظهر على المساجد الأولى كما تتطرّقنا البساطة في البناء والأثاث ثمّ أخذ المسلمون يعتنون بها فيوسعون مساحتها، ويبنونها بالحجارة والأعمدة ويزينونها لتلائم ما وصلوا إليه من غنى وقوّة وسعة فكان مسجد قباء الذي بناه الرسول صلى الله عليه وسلم عام الهجرة في المدينة لا يتجاوز باحة مُربّعة صغيرة تُحيط به جدران مبنيّة من الآجر والحجارة يرتكز سقفه المصنوع من الجريد والأغصان على جذوع النخل، وهو أوّل نموذج للمساجد الإسلاميّة ثمّ بني المسجد الثاني في الكوفة بعد سبعة عشر عاماً ورفع سقفه على أعمدة من الرخام أخذت من أنقاض بعض القصور القديمة، ثم بُنيت المساجد في الجزيرة وفي الممالك المفتوحة.

وكانت مساجد الحجاز النموذج التي كانت تحاكيه مساجد البلدان الأخرى، وساعد على ذلك مجيء الحجاج في كل عام إلى مكة والمدينة، وقدْ أُدخل المنبر للخطابة في عهد الرسول ومنع عمر أنْ يتّخذ المنبر في مساجد العالم الإسلامي غير مسجد المدينة لكن بعد عمر اتخذوا المنابر للخطابة، واتّخذ معاوية مقصورة في المسجد ليحتجب خشية على نفسه ليحل به ما حل بعمر وعلي من اغتيال، وأدخلت الزيادات على المساجد مع الزمن فاتّخذت المآذن لأول مرة في دمشق حين أذّن المسلمون فيها للصلاة من أبراج المعبد الوثني الذي قام على أنقاضه المسجد الأموي.

ولما امتدّت فتوحات العرب إلى خارج شبه الجزيرة العربيّة ,استخدم المسلمون العرب بعض الكنائس التي وجدوها في سوريا كأمكنة للصلاة، كما قاموا بتحويل بعض القصور الفارسيّة في إيران إلى مساجد بالرغم ممّا وجدوا بها

من أشكال حيوانيّة أمّا في العراق ومصر فقام العرب بتأسيس مدن جديدة شيّدوا فيها مساجد بسيطة ,ففي جامع البصرة الذي شُيِّد في عام (١٤ هـ – ٦٣٥ م) والكوفة المشيّدة في (١٧ هـ – ٦٣٨ م) اكتفى المسلمون بإحاطة قطعة الأرض بخندق محفور بدلاً من الجدران ,وسقفوا جزءاً منها بالخشب والجريد وكان يحمل السقف أعمدة من جذوع النخيل أو من الأعمدة الحجريّة التي جلبوها من الكنائس ,أو من القصور القديمة التي وجدوها في إقليم الحيرة على حدود العراق، وكان يسكن هذه المنطقة عام ٤٥٠ م اللّخميون الذين يدينون بالولاء للفرس، كما استقر ملوك ((الغساسنة))الذين يدينون بالولاء للرومان على حدود سوريا حوالي ٥٠٠ م. ولقدْ تكرّر هذا التصميم البسيط في جامع عمرو الذي شيد في مدينة الفسطاط الجديدة عام (٢٠ هـ – ٦٤١ م)، واستخدم العرب هذه المساجد الأولى أيضا كرباطات لجنود المسلمين.

تغيّرت نظرة الحكام المسلمين إلى الحياة بعد أنْ انتقلت الخلافة على بني أمية، فنجد أنّ بعض الخلفاء الأمويين بعد أنْ استقر حكمهم في دمشق ودانت لهم جميع بلاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، انغمسوا في البذخ والترف، كما اهتموّا بتشييد العمائر الضخمة تشبهاً بمشيّدات ملوك الفرس وحكام بيزنطة الفخمة، ولذلك يبدأ نشاط حركة المعمار في عصر الدولة الأمويّة، ومن أهم مظاهر هذا النشاط المعماري، مساجد فاخرة تتفق مع انتشار الدين الجديد، ولا تقل في فخامتها عن الكنائس البيزنطيّة، كما يشمل أيضا القصور والمساكن التي أقامها الحكام والأمراء الأمويون لسكانهم. ولقدْ استعان الأمويون في مشروعاتهم المعماريّة بعمّال سوريّين مدربين، كما استقاموا أيضاً العمال والفنيّين المهرة من مختلف أقطار الإمبراطوريّة الإسلاميّة. ولقدْ نتج عن ذلك ظهور أوّل طراز في تاريخ العمارة الإسلاميّة وهو الطراز الأموي. ولقدْ انتقل هذا الطراز إلى الولايات الواقعة تحت الحكم الأموي.

تطوّرت عمارة المساجد تطوراً كبيراً في عهد الأمويّين بعد مشاهدتهم ما ببلاد الشام من عمائر مسيحيّة، ولقدْ ظهر هذا التغير في فترة حكم الخليفة ((عبد الملك)) وازدهر في عهد خلفه ((الوليد بن عبد الملك))، وتظهر من تلك الفترة مساجد فخمة لا تزال قائمة حتّى الآن أهمّها ((قبة الصخرة)) و((المسجد الأقصى)) ببيت المقدس و((المسجد الأموي)) بدمشق، كما أقيم في خارج الشام ((جامع سيدي عقبة)) في القيروان و((جامع الزيتونة)) في تونس، ولقدْ قام الحكام الأمويّون بتجديد المساجد التي شُيِّدت في عهد الخلفاء الراشدين وهي جامع المدينة وجامعا البصرة والكوفة بالعراق وجامع عمرو بمصر، و في العالم الإسلامي اليوم آلاف مؤلّفة من المساجد، بعضها قديم وبعضها حديث العهد يغلب على كل إقليم نظام معماري خاص متأثر بالفنون

المعماريّة السائدة فيه، ومن أهم المساجد التي بُنيت في العصور الإسلاميّة وكانت ذات ظواهر معماريّة أثرت في فن العمارة للمساجد ، وهي الخصائص البنائيّة التي استعملها المسلمون لتكون هويّة لهم، وقد نشأت تلك العمارة بفضل الإسلام وذلك في المناطق التي وصلها كشبه الجزيرة العربيّة ومصر وبلاد الشام والمغرب العربي وتركيا وإيران وغيرها بالإضافة إلى المناطق التي حكمها لمددْ طويلة مثل الأندلس (إسبانيا حاليّاً) والهند، وتأثرّت خصائص العمارة الإسلاميّة وصفاتها بشكل كبير بالدين الإسلامي والنهضة العلميّة التي تبعته. وتختلف من منطقة لأخرى تبعاً للطقس وللإرث المعماري والحضاري السابق في المنطقة, حيث ينتشر الصحن المفتوح في الشام والعراق والجزيرة العربيّة بينما اختفى في تركيا نتيجة للجو البارد وفي اليمن بسبب الإرث المعماري. وكذلك نرى تطوّر الشكل والوظيفة عبر الزمن وبتغيُّر الظروف السياسيّة والمعيشيّة والثقافيّة للسكان ونذكر المساجد في ذلك الوقت وهي:

– الحرم الشريف في القدس – المسجد الأموي بدمشق – جامع القيروان ويدعى بجامع سيدي عقبة، بناه عقبة بن نافع عندما خطَّ مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ، ٦٧٠ م ثم هدم وأعيد بناؤه سنة ٧٦ هـ. جامع الزيتونة هو رابع جوامع القارّة الأفريقيّة في الزمان، فجامع الفسطاس أنشئ سنة ١٣ هـ وجامع الزيتونة رباط وجامع بل رباط فيه جامع. والرباط هو ثكنة ((حصن)) للمتطوعين لحراسة الثغور – مسجد قرطبة وقدْ بناه عبد الرحمن الداخل قبل وفاته بعامين في سنة ٧٦٨ هـ وأراد أنْ يضاهي مساجد الشرق سعةً وعمراناً وعظمةً وبُني على مثال المسجد النبوي– مسجد سامراء وقدْ بني من الآجر، واستخدمت فيه دعائم من الآجر لحمل القناطر عوضاً عن الأعمدة الرخاميّة كما يمتاز بالمئذنة الباقية حتّى اليوم، وهي مئذنة مرتفعة، مبنيّة من الآجر، ويصعد إليها بدرج حلزوني. – جامع ابن طولون وبناه أحمد ابن طولون على مثال مسجد سامراء سنة (٢٦٣ – ٢٦٥) فبُنى فيه مئذنة ملويّة، مصنوع من الآجر بطبقة من الجص وزينه بكثير من الكتابات، إما بالجص والآجر أو حفرها بالخشب، وعُني بأن يكون بنيانه قويّة وقدْ بقي حتّى اليوم.– مساجد الفاطميّين (الجامع الأزهر) نموذج من فن بناء المساجد في عصر الفاطميينّ بناه القائد جوهر صقلي باسم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، وتمت عمارته سنة (٣٦١ هـ – ٩٧٢ م).– مساجد العصر المملوكي في الشام ومصر لم يعتبر المهندسون الفنانون العصر المملوكي في الشام ومصر، عصراً ذهبياً لتاريخ العمارة الإسلاميّة، عن عبث وإنّما لكثرة وتنوع العمائر التي ظهرت في هذه الفترة، من مساجد ومدارس وأضرحة وحمامات وأسبلة وخانات، لم يحتفظ فيها بالأساليب المعماريّة المتوارثة، بل أضيف عليها كثير من التحسين والتوسيع والإتقان والأناقة وخاصّة في الواجهات المنارات والقباب وفي

الزخارف الجصيّة والرخاميّة ونجدْ مساجد العصر السلجوقي قد ظهر أثر السلاجقة في العراق وإيران وأسيا الصغرى والشام، وهم رغم انتمائهم إلى قبائل تركيّة واعتمادهم على أبناء المناطق التي سيطروا عليها سياسياً، رعوا الفنون المعماريّة، وظهرت في عهدهم مساجد وعمائر ذات طراز خاص مُتميّز بالضخامة والمظهر القوي، وقدْ تأثروا في بنائها بما ظهر من أساليب معماريّة على يد محمود الغزنوي والدولة الغزنويّة ،مساجد العصر المغولي في إيران بعد أنْ قضى هولاكو زعيم التتر على بغداد ٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م وقتل الخليفة المستعصم، اعتنق أتباعه الإسلام وأسّسوا الأسرة الإلياخيّة في إيران حكمت قرابة قرن من الزمان، وقدْ تأثروا بالثقافة الصينيّة والإيرانيّة القديمة فتطوّرت أبنيتهم نحو الرشاقة، وهم وإن احتفظوا بطابع الفن المعماري السلجوقي المتمثل في مسجد الجمعة في أصفهان، إلا أنهم أشبعوها بالأساليب الفنية الصينيّة مساجد العصر الصفوي اتخذ الصفويّون الذين تأسّست دولتهم عام ٩٠٧ هـ – ١٥٠٢ م مدينة تبريز الإيرانيّة عاصمة لهم، ثمّ نقلت العاصمة بعد ذلك إلى مدينة أصفان، فقدْ حاول الصفويون بعث الحضارة الإيرانيّة القديمة، ومحاكاة الأساليب الفنيّة الإيرانيّة بمنشآتهم العمرانيّة ومنها المساجد وما يلحق بها من أضرحة أو مدارس. وأشهر المساجد الصفويّة جامع وضريح الشيخ صفي الدين في مدينة أربيل، وهذا الشيخ هو الولي الذي ينتسب إليه الصفويون لذلك عمدوا إلى جعله من الضخامة والجمال والغنى ما ينافس به بقيّة المساجد والأضرحة في المناطق الأخرى، حتّى أنهم اضطروا بعد وقت من إقامة بناء خاص مُلحق يُعرف بقصر بورسلين أو الصيني (شيني خانا) لحفظ مجموعة الخزف الخاصّة بالضريح، ويُعتبر مسجد الشاه في أصفهان التحفة الثانية للصفويّين مساجد العصر الهندي المغولي: بعد أنْ نشر الغزنويون الطراز المعماري السلجوقي فيما فتحوه من الهند، مرّة على المناطق الإسلاميّة عهد من الجمود، إلى أنْ أقام الإمبراطور باير حفيد تيمور لأنّك في دهلي إمبراطوريّة إسلاميّة مغوليّة ٩٣٣ – ١٢٧٥ هـ ١٢٥٦ – ١٨٥٧ م وشيد في هذا العهد كثير من المساجد، جمعت بين الأساليب الهنديّة القديمة وطبيعة العبادة في المساجد الإسلاميّة، واقتبست بعض الطُرز الإيرانيّة المعماريّة، فجاءت نسجاً جديداً نسجه بحق طراز البناء الهندي الإسلامي منها مساجد العثمانيين : قبل انتقالي العثمانيّين إلى اسطنبول واتخاذها عاصمة، اعتمدوا الطراز السلجوقي لا في المساجد فحسب بل في جميع عمائرهم، وبعد فتح القسطنطينيّة تأثروا بالبناء البيزنطي المتمثّل في آيا صوفيا التي حولوها إلى مسجد وأوّل مسجد تأثّرت هندسته بها مسجد المحمديّة أو مسجد محمد الفاتح (٨٦٧ –٨٧٣ هـ ١٤٦٣ – ١٤٦٩ م) الذي نقل عن آيا صوفيا نظام القبّة وأنصاف القبّة ويُعد العصر الذهبي لبناء المساجد العثمانيّة، ما بني من تصميم وإشراف المهندس التركي سنان الذي صمم خريطة ١٣٥

حماماً تركياً وأشرف على بنائها وأكثر من هذا العدد خرائط للمساجد، وأبهى منشآته جامع السليمانيّة في اسطنبول الذي دفن بجواره، ونتطرّق في بحثنا هذا الظواهر المعماريّة في فن المساجد للحرم الشريف في القدس والمسجد الأموي بدمشق ، وفي هذا العصر نرى تطوراً كبيراً في طرق البناء فقدْ ابتكر الأمويّون فنونا في إشادة الأبنية والقصور والمساجد استفاد منها الحضارات اللاّحقة التي أخذت من طراز البناء الأموي ونقلت عنه، فنجد العقود واستخدام الجمالونات الخشبيّة المحمّلة على أكتاف من الحجر، كانت الفتحات في الغالب مستطيلة ويتم تحميل الحائط من فوقها عن طريق توزيع حمله على عقد نصف دائري، ودخل استخدام المرمر في الأرضيّات حيث يضم الحرم الشريف في القدس ثلاثة مساجد : مسجد الصخرة ومسجد عمر والمسجد الأقصى، أمّا مسجد عمر فهو مسجد بسيط يقوم عند الطرف الشرقي من الحرم في المكان الذي صلّى فيه عمر بن الخطاب رضي الله عليه لما ذهب إلى القدس ليتسلّمها من البطرياك صفر ونيوس، وأمّا المسجد الأقصى فهو المسجد الرئيسي في الحرم وقدْ بُني إلى الغرب من مسجد عمر ومحاذياً له وهو يشبه في تنظيمه الداخلي الجامع الأموي في دمشق والجامع العمري الكبير في بيروت وأمّا مسجد الصخرة فهو بناء صغير نسبياً مثمّن، تعلوه قبّة كبيرة وكانت أوّل المساجد التي طلعت على العالم الإسلامي بنموذج جديد من البناء يختلف عن بساطة المساجد الأولى وزهدها

شُيِّد مسجد قبّة الصخرة في عهد ((عبد الملك بن مروان)) في عام ٧٢ هـ – ٦٩١ م وهو يتميّز بتصميم فريد لم يُعرف من قبل في عمارة المساجد الإسلاميّة، كما ولم يتكرر ظهوره مرّة ثانية، ويمتاز هذا المسجد بجمال وفخامة زخارفه، ولقدْ جُدِّد هذا المسجد عام ١٦٤ – ٧٨٠م. ويتكوّن هذا المسجد من بناء من الحجر مثمن الأضلاع ويقع بكل ضلع من أضلاعه الخارجيّة عقود مُدبّبة تعلوها نوافذ، ويتوسّط الأضلاع المقابلة للجهات الأربع الأصليّة من المثمن أربعة أبواب. ويكسو الجزء الأسفل من الجدران الخارجيّة ألواح من الرخام، أمّا الجزء الأعلى فكان مُغطى بطبقة من الفُسيفساء أُزيلت في العصر العثماني في فترة حكم ((سليمان القانوني)) في عام ٩٥٠ هـ – ١٥٤٥ م، واستبدل بها لوحات من القيشاني، ويتوسّط المبنى الصخرة المقدّسة التي ذكر أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ارتفع من فوقها إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج،

وتحيط بهذه الصخرة دائرة من الدعائم والأعمدة، ويبلغ عدد الدعائم أربعاً، ويقع بين كل دعامتين ثلاثة أعمدة، وتحمل هذه الدعائم واجهة أسطوانيّة مغطاة من الداخل بالفسيفساء قوام زخارفها فروع نباتيّة. ويوجد بهذه الاسطوانة ست عشرة نافذة مزخرفة بالقيشاني من الخارج، وزخارف جصيّة بها زجاج ملون من الداخل. وترتكز على هذه الاسطوانة قبّة خشبيّة مزدوجة الكسوة، من الخارج مُغطاة بطبقة من ألواح الرصاص ومن الداخل بطبقة من الجص المذهب، ويفصل جدار المثمن الخارجي عن الجزء الدائري مُثمّن أوسط يتكوّن من دعائم يكسوها الرخام وستّة عشرة عموداً رخامياً ذات تيجان مختلفة الطراز، ويعلو هذه الدعائم والأعمدة عقود زُيّنت جدرانها بطبقة من الفسيفساء قوام زخارفها عناصر نباتيّة، ولقدْ نتج عن تشييد هذا المثمن الداخلي وجود رواقين داخلي وخارجي، ويُغطي هذين الرواقين سقف من الخشب مزدوج الكسوة. فمن الخارج ألواح من الرصاص ومن الداخل ألواح خشبيّة منقوشة، ويوجد بقبّة الصخرة محراب أملس غير مجوف ينسب إلى عبد الملك، ومحراب آخر يعرف باسم قبلة الأنبياء.

ويظهر من دراسة هذا التصميم تأثُّر العمارة في فجر الإسلام بالأساليب الفنيّة التي كانت سائدة في بلاد الشام قبل دخول العرب بها. فتصميم المسجد مُقتبس من تصميم بعض الكنائس التي كانت موجودة ببلاد الشام وإنْ اختلفت عنها في التفصيل، فكنسية القديس يوحنّا في (جرش) بسوريا التي شُيِّدت في عصر قسطنطين عبارة عن دائرة داخل مربع، كما أنّ كنيسة الصعود الموجودة في جبل الزيتونة في الأردن (القرن الرابع الميلادي) كان تصميمها عبارة عن مُثمّن داخله دائرة تحُيط بصخرة كان يقف عليها المسيح عندما فتحها العرب حيث وجدوا بها كنائس ذات قباب خشبيّة، ويتّضح أيضاً من الفسيفساء التي عُثِر عليها في مدينة مدابا بالأردن، أنّ تصميم مدينة القدس كان دائرياً

.ويقوم المسجد الأموي بدمشق في منطقة مُقدّسة من معبد وثني قديم للآلهة جوبيتر الدمشقي، وفي عهد الإمبراطور تيودور سنة ٣٧٩ م حول إلى كنيسة أُطلق عليها اسم كنيسة القديس يوحنا، وكان في كل ركن من أركانها المعبد الوثني برج مربع، وقدْ اختطّ أبو عبيدة بن الجراح على المعبد جامعاً، كما استعمل المسلمون الأبراج للأذان، ثمّ جاء الوليد بن عبد الملك وكان كلفاً بالعمارة، فاشترى الكنيسة من النصارى وعوضهم بدلها، وأمر بإقامة مسجد فخم مكانها،

وتمّ تشييده واستقدم لبنائه العمال من جميع الأطراف، وقيل أن إمبراطور الروم وجه إلى دمشق مائتي صانع من أمهر الصناع البيزنطيّين لينضموا إلى عمال المسجد بناء على طلب الوليد.

من هنا وفي هذا المسجد ألّفت وأمليت المؤلّفات الكبيرة كتاريخ دمشق لابن عساكر وغيره حيث كان الجامع الأموي المدرسة الجامعة لعلماء دمشق وطلابها فيه تلقى الدروس العلمية من كل فن.

اهتمّ الوليد بن عبد الملك بتشييد مساجد بالشام عندما كثر عدد المسلمين بها، وأهم هذه المساجد جامع دمشق الذي بدئ في تشييده في عام ٨٨ هـ – ٧٠٧ م وتمّ في ٩٦ هـ – ٧١٤ م. ولقدْ أقام الوليد هذا المسجد فوق أساسات كنيسة القديس يوحنّا التي أمر بهدمها، وكان المسيحيّون قدْ شيّدوا هذه الكنيسة فوق أنقاض معبد وثني كانت له أبراج مُربّعة في أركانه، ولا يزال أحدها قائماً في الركن الجنوبي الغربي حيث أبقى المسلمون عليه واستخدموه للمناداة على الصلاة.

ويتكوّن هذا المسجد من مساحة مستطيلة يتوسّطها صحن مستطيل مكشوف ويحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يقع في الجهة الجنوبيّة وهو مكان العبادة، ويتكوّن رواق القبلة من ثلاث بلاطات طويلة موازية لجدار القبلة، أمّا الأروقة الثلاثة فتتكون من بلاطة واحدة، وبقع المخل بالرواق الشمالي، ويتعامد على مُنتصف رواق القبلة رواق قاطع ينتهي بالقبلة التي تتوسّط الجدار الجنوبي، ويُغطى منتصف هذا التقاطع قبّة حجريّة أضيفت في عصر متأخّر، ويقل ارتفاع سقف الأروقة الطويلة عن الرواق القاطع. ويغطى هذه الأروقة سقف خشبي مُنحدر على هيئة جمالون، وتظهر بالجدران المحيطة بصحن الجامع عقود تشبه حدوة الحصان محمولة على دعائم وأعمدة، كما توجد بها أيضا عقود مُدبّبة الشكل، ويعلو العقود صف من النوافذ لتخفيف الثقل عليها وهي موضوعة بحيث يعلو كل عقد نافذتان، وكانت جدران المسجد الداخليّة مُغطّاة بألواح من المرمر من أسفل بارتفاع قامة الإنسان، وبطبقة من الفسيفساء من أعلى، ولقدْ بقي جزء منها في الرواق الغربي وقوام زخارفه رسوم لعمائر بين الأشجار والأنهار.

من الواضح أنّه طرأ تغيير على تصميم الجامع الذي كان معروفاً قبل العصر الأموي وأنّ مهندس الوليد قدْ اقتبس تصميمه من شكل الكنيسة المستطيل مع تصرف في بعض التفاصيل بطريقة عكسيّة، فتصميم الكنيسة يعتمد على أنّ المخل المواجه للمكان المقدس يوجد في عرض المستطيل القصير، في حين أنّ تصميم الجامع يعتمد على أنّ الضلعين اللذين يقع المدخل ومكان العبادة بهما أطول من الأضلاع الأخرى، كما أنّ أقواس الأروقة القائمة على الأعمدة توازي حائط القبلة في الجامع بدلاً من تعامدها معه في الكنسية. ويُلائم هذا التصميم المصلين

الذين يقفون في صفوف طويلة موازية لجدار القبلة، ويؤكّد علماء الآثار أنّ الأموي بني جميعه دفعة واحدة بعد أنْ دكت جميع الأبنية السابقة، ولمْ يكن بناؤه ترميما أو إتماماً لبناء سابق. ويقول في ذلك الدكتور سليم عادل: ((ونحن لا نقبل نظريّات ولزنجر وواتزإنجر وديسو ولامانس ومن لف لفهم في أنّ الوليد لم يبني من المسجد غير القبّة والمئذنة الشماليّة وأنّه لم يجر في بناء الكنيسة إلاّ بعض الإصلاحات الجزئيّة وذلك لأسباب كثيرة. أهمّها: أنه لا يوجد ولا كنيسة يشبه مُخططها مُخطط الجامع الأموي، وإنّ شكل البناء بصورة عامّة يُخالف تقاليد السوريّة النصرانيّة في فن العمارة، ونعتقد مع تيرش وستوزياكورسكي وسوفاجيّه آخر مؤرخي المساجد أنّه يقدم لنا نموذجاً متجانساً يصعب القول إنّه بُني على دفعات في عصور مختلفة، ثمّ إنّ زخارفه الإسلاميّة تنسجم مع بنائه انسجاماً تاماً يمنع عن التفكير أنها صنعت مُستقلّة عنه)).

ويقول الدكتور زكي محمد: ((وكان المسيحيّون قدْ شيّدوا في هذه المنطقة (أي المعبد الوثني) كنيسة قبل الفتح الإسلامي وقدْ هدم الوليد هذه الكنيسة وشيّد الجامع، فلا صحّة بما يزعمه بعض مؤرخي الفنون من أنّ بيت الصلاة في المسجد الحالي هو كنيسة القديس يوحنّا التي قسّمها المسلمون بينهم وبين المسيحيين بعد فتح دمشق (أي يقصد أنّ البناء جميعه من عمل الوليد لا أنه قلب الكنيسة إلى جامع بتغيير مظهرها)).

ويقول أيضاً: ((ومن المحتمل أنْ يكون تصميم الجامع الأموي مُتأثراً بنظام الكنائس السوريّة وأنْ تكون واجهة رواق القبلة تشبه واجهة القصور البيزنطيّة، وأنْ يكون الباعث على إدخال البلاطة المعترضة (الرواق النصفي في داخل المسجد) في هذا الرواق الرغبة في إظهار أهميّة المحراب الذي تنتهي به هذه البلاطة، وفي هذا الجامع بضع نوافذ من الرخام فيها أقدم نماذج من الزخارف الهندسيّة في الإسلام.

والحق أنّ هذا الجامع دُرَّة في تاج العمارة الإسلاميّة))، ويُعتبر سوفاجيّه أنّ هذا المسجد كان ((أوّل نجاح معماري في الإسلام)) ويؤكّد جورج مارسيه ((أنّ البناء المسيحي هدم)) قبل إشادة المسجد إذْ أنّ الصفة العامّة للبناء كما يقول مارسيه ((بأقواسه وسقوفه وسطوحه ذات المنحدرين (جمالونين) لا تسمح باعتباره كنيسة محوّلة إلى مسجد)).

ويؤكّد الأمير جعفر الحسني، أنّ الوليد اصطفى كنيسة القديس يوحنّا كلها، فهدمها وشيّد مكانها جامعه الخالد، الذي أصبح من أكبر مساجد العالم الإسلامي، بُني على غير مثال معروف استوحى واضع تصميمه من الأبنية السوريّة قبل الإسلام، وطرازها المألوف إذْ ذاك، فصاغ منها نوع بناء جديد له طابعه الخاص، وشخصيّته المستقلة، وقدْ وُفِّق المهندس والصانع إلى حد بعيد في الجمع بين أسلوب البناء القديم وزخارفه وما تستلزمه

شروط الحياة الإسلاميّة وتعاليمها الدينيّة، حتّى كاد يلتبس على الباحث أصول هذا المزج ويعتبره ابتكاراً لا مزج فيه ولا استعارة وهكذا وُضعت معه أُسس الهندسة العربيّة التي استراح إليها العرب المسلمون واتّخذوها مثالاً احتذوه، وللأسف أُصيب هذا الجامع بزلزال صدعت أركانه ومناراته، وحُرق ست مرّات في عصور مختلفة أوّلها حريق سنة ١٠٦٩ م والأخيرة سنة ١٨٩٣ م ذهبت بمحاسنه ولم يبق منها إلاّ النزر القليل، وكان يُعاد بناؤه في كل مرة إلى ما كان عليه قبل الكارثة مع تحرير بسيط.

ولقدْ تأثّرت مساجد بعض الأقطار الإسلاميّة التي شُيِّدت في العهد الأموي بهذا التصميم، فيظهر نموذج المسجد المستطيل ذو الصحن المكشوف في مسجد حلب بسوريا، وجامع الزيتونة بتونس ومسجد سيدي عقبة بالقيروان، كما ظهرت منه نماذج في المساجد الملحقة بالقصور التي شيّدها الأمراء الأمويّون، ويمكن القول إنه أصبح الشكل التقليدي للمساجد الإسلاميّة، ويظهر التأثير الأجنبي في هذا المسجد أيضاً في مواجهة الرواق الجنوبي التي تشبه واجهة القصور البيزنطيّة المرسومة على زخارف الفسيفساء التي تُغطي جدار كنيسة بمدينة رافينا.

ولقدْ دخلت في عصر الأمويين عناصر معماريّة جديدة لم تكن معروفة من قبل في العمارة الدينيّة الإسلاميّة، حيث ذكر أنّ معاوية أمر ((مسلمة)) واليه على مصر بتشييد صوامع للمُناداة على الصلاة في أركان جامع عمرو، ويعد ذلك أوّل مرّة يأتي فيها ذكر المآذن في تاريخ العمارة الإسلاميّة ،ولم تكن المآذن معروفة من قبل العصر الأموي، واقتبست فكرتها من الأبراج التي كانت ملحقة بأماكن العبادة بسوريا، ولقد انتقلت فكرتها إلى مصر في فترة حكم معاوية، ومن العناصر المعماريّة التي أدخلها الأمويّون أيضا في عمارة المساجد، المحراب المجوف المقتبس من حنيّة الكنيسة، والمنبر الذي كان معروفاً في الكنائس المسيحيّة واستخدم في مصر منذ عصر عمرو بن العاص، كما ذكر أنّ أوّل مقصورة شُيِّدت بجانب المحراب كانت للخليفة معاوية.